

بسم الله الرحمن الرحيم

أسس الاقتصاد الإسلامي ومبادئه

نسخة مراجعة لبحث

"الاقتصاد الإسلامي أسس ومبادئ"

تم إنجازه بتاريخ 15 أبريل 2024

الكاتب: علي يوعلا

أستاذ التعليم العالي سابقا

بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس

youala-resaerch.com

طبعة مارس 2025

أسس الاقتصاد الإسلامي ومبادئه

توطئة

قبل الدخول في صلب الموضوع قد يكون من المفيد أن نبدأ بمقدمة نذكر من خلالها بعضاً من الوقائع التي تساعد على فهم قضيتنا وإدراك مسوغات الطريقة التي طرحت بها ومبررات منهجية معالجتها من الوقائع التاريخية التي حددت كنه الاقتصاد السياسي الذي يسود عالم اليوم، ومن الوقائع التي كان لها نصيب ما في بلورته الآتي:

1 - الانقلاب الفكري والعقدي الذي اندلع في أوروبا إيذاناً بإنهاء المجتمع الإقطاعي وصعود المجتمع الرأسمالي، الانقلاب الذي أحدث تمرداً جذرياً على الموروث التاريخي جملة وتفصيلاً، تمرداً غير النظرة إلى الحياة والعلم وتصور الوجود والعقل والوحي والغيب والموت من توجهها القديم كما كانت تدعيها السلطة الكنسية عبر القرون إلى توجه لا يصغي إلا لسلطان العقل ولا يزكي إلا ما كان تمرداً لا على الكنيسة فحسب وإنما على الدين ذاته بل وعلى أصله كيفما كان نوعه.

2 - لم يتوقف هذا الصراع بين التوجهين عند مستوى السجال الفكري والنقاش الأكاديمي فحسب بل انتقل إلى المجتمع ومؤسساته فأحدث ثورات أتت بنظم اجتماعية وسياسية وتعليمية جديدة وحسمت الحرب بطرد الكنيسة، ومن ثم الدين من مؤسسات المجتمع، وتكرس منذ ذلك التاريخ مبدأ الفصل الذي يختزل في عبارة: "دع ما لله وما لقيصر لقيصر" أي أن الحياة الزمنية لا دخل للدين فيها بل ناصيتها بيد العقل البشري الذي يفترض أن له السطوة على كل شيء بفضل سلاح العلم الذي يشهر سيفاً في وجه الدين والأخلاق والأعراف والعادات والتقاليد... ولا يجوز العمل بها إلا في حدود إمرة سلطانه.

3 - من هذا المخاض تولدت الأفكار التي تحولت إلى عقائد ألبيت مسوح العلم لتكون هي المرجع الأساسي في الحكم على ما يجوز وما لا يجوز من سلوك الناس، ومن أهم تلك العقائد ما تقوله الفلسفة النفعية من أن الإنسان من حيث هو إنسان يسعى إلى اللذة ويفر من الألم، ومنها أن المحرك الذي يحمله على النشاط إنما هو مصلحته

الخاصة لا غير، بمعنى أن أنانيته لا غير هي التي تملي عليه طريق النجاح والفلاح، ولأجل ذلك عليه أن يحكم العقل لا غير في الحصول على أقصى ما يمكن من اللذة والتقليل إلى أدنى ما يمكن من الألم، وكل اعتبار آخر: أخلاقي أو ديني أو اجتماعي أو عرفي... يثنيه على هذه الغاية، يجعل تصرفه هذا تصرفاً لا عقلانياً.

4 - من هذه العقائد انبثقت الروح التي تسري في الأنظمة والقوانين والمؤسسات والمناهج والبرامج والخيارات المهيمنة على صياغة الشأن العام والخاص في بلدان أوروبا الغربية ابتداءً، ثم امتدت بشكل أو بآخر إلى بقية العالم في ظروف تختلف من بقعة جغرافية إلى أخرى، وفي إطارها بنيت الإمبراطوريات الاقتصادية على حساب أجيال سحقت إبان التنافس الرأسمالي الناشئ تحت قبة الثورة الصناعية، وعلى حساب شعوب أبيت إبان التنافس الميركونتيلي، وعلى حساب ثقافات فككت إبان التنافس الرأسمالي الإمبريالي، وعلى حساب السلم العالمي عندما مني العالم بحربين كونيتين في القرن الماضي والثالثة بواردها قائمة وهي في انتظار شرارة الاندلاع، وعلى حساب التنوع الثقافي تحت قبة العولمة والثورة المعلوماتية؛ والنظريات الاقتصادية التي أنتجت خلال هذه الصيرورة هي المسؤولة على:

أ - اتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء.

ب - رعاية علاقات اقتصادية دولية ظالمة.

ج - إنتاج أسلحة الدمار الشامل بكميات تكفي لتدمير الكرة الأرضية عدة مرات.

د - الفساد الأخلاقي الذي لا يعتبر في النظرة السائدة فساداً إلا عند ما يكون من العيار الثقيل ويمس خاصة بورصة القيم وفضيحة إنرون (Enron)¹ أصدق مثال على ذلك.

¹ - « C'est l'histoire d'une faillite (encore) : cette fois, de la 7e entreprise américaine en termes de capitalisation boursière en 2000, qui s'est désintégrée en un éclair – capitalisation boursière qui correspond au volume d'actions en circulation de l'entreprise cotée multiplié par le prix unitaire de ces actions. Cette entreprise, c'est Enron. Et si cette faillite fut un véritable scandale qui secoua Wall Street en son cœur et ébranla la finance mondiale, c'est parce qu'Enron réussit à tromper les régulateurs pendant des années avec une fraude financière d'envergure. » « Le scandale Enron ou les dérives d'un capitalisme dérégulé »

URL : <https://major-prepa.com/economie/scandale-enron-derives-capitalisme-deregule/>

هـ - تدمير البيئة جوا وبراً وبحراً، تربة وأحياء ونباتات وإنساناً.

و - تجريم الضحية وتبرئة الظالم كلما تماشى ذلك مع مصالح اللوبيات الاقتصادية الكبرى.

5 - الاقتصاد الإسلامي، الذي هو موضوعنا، لا حضور له في تلك النظريات، بل جرى إنكار وجوده بالمرّة بأن ألغى مؤرخو الفكر الاقتصادي التي كانت له فيها الريادة من الفكر البشري فسموها فترة الفراغ الكبير،² وعلى الرغم من أن الوقائع التاريخية تفند صحة هذه الأكذوبة إلا أن الترويج لها في التأليف وفي الأوساط الأكاديمية رقاها في الأذهان إلى مقام المسلمات، ومن المزاعم المسوغة لترسيخ القناعة بها كون الاقتصاد الإسلامي صلته بالدين وثيقة، والدين بات غير معترف به بل هو محارب بجريرة الموروث الكنسي الذي دفع ببعضهم إلى الترويج لمقولة "الدين أفيون الشعوب"³ بل يجري على لسان الأغلب الأعم ممن تتلمذوا من المسلمين على مدرسة الاقتصاد السياسي إنكار وجوده واعتبار الحديث عنه عبث ومضيعة للوقت، وهذا ضداً على الثقة الغير المشروطة من شرائح المجتمع المسلم في كل أنحاء العالم في ما يتضمنه كتاب الله وسنة رسوله من

في كتابه تاريخ التحليل الاقتصادي حيث وزع هذا Joseph Schumpeter - الأشهر بين أصحاب هذه الفرية هو المدعو جوزيف شومبتر² التاريخ إلى حقب متتابعة فألغى منها قروناً كاملة هي القرون الفاصلة بين الحقبة الإغريقية والرومانية (سقوط روما في القرن الخامس الميلادي) وحقبة المدرسين (عهد القديس توماس الإكويني في القرن الثاني عشر الميلادي) أو فترة السكولاستيك، ولما كانت الحلقة المفقودة في هذا التسلسل التاريخي تمتد إلى سبعة قرون منها الخمسة الواقعة فيما بين القرن السابع والثاني عشر الميلادي وهي فترة الريادة للفكر الاقتصادي الإسلامي سماها شومبتر بفترة الفراغ الكبير، وفي السنين الأخيرة نشرت بعض الكتابات المبينة للتزييف التاريخي الذي يروجه شومبتر واتباعه، ومن ذلك ما كتبه صاحب المقال "البؤس في الكر الاقتصادي" والذي جاء فيه: "

« Un "grand vide" traverse la pensée économique. Malgré les efforts déployés ces dernières années par les historiens, un pan entier de l'histoire de la pensée économique a été laissé dans l'ombre. Un des économistes qui a le plus fait parler de lui ces dernières années est, sans l'ombre d'un doute, Joseph Alois Schumpeter (1883-1950). Outre son *magnum opus* « Capitalisme, socialisme et démocratie », l'influence de son « Histoire de l'analyse économique » peut encore être ressentie à ce jour. En effet, la plupart des historiens de la pensée économique qui ont suivi n'ont fait que reprendre point par point son analyse, tirant d'un trait de plume cinq siècles de pensée économique en terres d'Islam. Il est grand temps que le mythe du « grand vide » de Schumpeter soit démantelé et oublié une bonne fois pour toute. » Ahmed Danyal Arif, « Misère dans la pensée économique », URL : <https://oumma.com/misere-dans-la-pensee-economique/>

³ - تنسب هذه المقولة عادة إلى ماركس، إلا أن بعض الكتابات تورد نسبة جذورها إلى كتاب قبله، هذا ما جرى التعبير عنه في واحدة من تلك الكتابات على النحو التالي:

« Partisans et adversaires du marxisme sembleraient s'accorder sur un point : la célèbre phrase « la religion est l'opium du peuple » représenterait la quintessence de la conception marxiste du phénomène religieux. Pourtant, rien n'est moins sûr. Cette formule n'a, d'abord, rien de spécifiquement marxiste. On peut la trouver, avant Marx, à quelques nuances près, chez Kant, Herder, Feuerbach, Bruno Bauer et beaucoup d'autres. » Michael Löwy, « La religion, opium du peuple ? », L'anticapitaliste, URL : <https://lanticapitaliste.org/opinions/societe/la-religion-opium-du-peuple>

توجيهات ربانية وأسس عقدية تقود حياتهم الاقتصادية كما تقود سواها إلى سعادتي الدنيا والآخرة.

ولعل بقية حديثنا يفلح في الكشف عن أهم تلك الأسس التي تبنى عليها سعادة الإنسانية في دنياها وآخرتها، والتي نتناولها تباعاً تحت العناوين التالية: التوحيد، العبادة، الأمانة، الابتلاء، التسخير، الاستخلاف، الجزاء.

1.§ - التوحيد

التوحيد هو "إفراد الله بما تقدر به، وبما أمر أن يفرد به؛ فنفرده في ملكه وأفعاله فلا رب سواه ولا شريك له، ونفرده في ألوهيته فلا يستحق العبادة إلا هو، ونفرده في أسمائه وصفاته فلا مثيل له في كماله ولا نظير له".⁴ إنها الوحدانية التي نتلوها في قوله سبحانه: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" (الإخلاص: 1) الله الوحيد المتقرب بطاعة كل المخلوقات لأمره اضطراراً وطوعاً، وله الأحقية في طاعة المكلفين من الثقلين في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه، وهذا يجعل الحياة حياة واحدة غير قابلة للقسمة ولا للتجزئ أو الانشطار، حياة أولها الدنيا وثانيها الخلود في الآخرة إما في الجنة أو في النار والعياذ بالله.

من هذا يتبين خطأ الميل الجامح لدى الكثير من الناس إلى الفصل بين ما لله وما لغير الله⁵ وهو الميل الذي يجنح بأصحابه إلى جعل المسجد والصلاة والزكاة والحج والصوم لله، وجعل البيع والشراء والثراء والجاه والمال والإنتاج والاستهلاك... لهوى النفس النزاعة إلى التكاثر، وهو المنحى الذي يجر الحياة كلها إلى اللهو والإعراض عن أمر الله عز وجل، ومن ذلك حذرنا سبحانه وأذرننا بمغبة مصير من يقع فيه في سورة بأكملها مطلعها "أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ"⁶ ويستنكر علينا سبحانه الوقوع فيه "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" (المؤمنون: 115)، ووعد أن من اختار هذا السبيل إنما اختار سبيل

4 - عبد القادر عطا صوي، "كتاب المفيد في مهمات التوحيد"، المكتبة الشاملة، عنوان الموقع: <https://shamela.ws/book/8672/8#p1>

5 - هذا الضلال إنما جاء تبعاً لأكذوبة "دع ما لله وما لقيصر لقيصر"، بل الذي يصلح للبشرية حالا ومآلاً هو أن "قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا" (الإسراء: 84)

6 - "يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)"

الويل كما أخبرنا في سورة كاملة مطلعها " وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ"⁷ (الهمزة: 2، 1)، بل إن حياة العسر تكون قرينته في الدنيا قبل الآخرة مصداقا لقوله تعالى: " وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى، إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى، وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى " (سورة الليل: 8-13)،

الآخرة والأولى كلاهما لله، إنها وحدة مقدرة من رب العزة وهكذا يجب أن يتلقاها كل مؤمن، ويؤسس كل أعماله على مقتضاها، ومقتضاها هو ما أنزل الله على محمد (ص) من الوحي والحكمة، وحدة في مرحلتين الأولى للعمل والأخرى للجزاء على ذلك العمل، والعمل في هذا المقام لا فصل فيه بين ما هو اقتصادي وما هو غير اقتصادي، وإلا لما اشتملتها جميعها أحكام بها تقاس صحتها وبطلانها سواء بسواء، ومما يدخل في ذلك، أحكام ترسم التوجه العام للمسلم في حياته كما في قوله تعالى "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (القصص: 77)

الاستنتاج

إن من ثمرات التوحيد الحق والاعتقاد الصحيح أن يتركز في الأذهان والوجدان أن الغاية من عموم سلوك الناس أفرادا وجماعات هي الركون إلى استهداف مراد الله منهم في كل ما يأتون وفي كل ما يتركون، وبما أن حياتهم الاقتصادية جزء من هذا الكل فإنه لا مسوغ شرعي ولا مبرر عقلي ولا استثناء راجح يخرج السلوك الاقتصادي من هذه القاعدة، ومن مقتضيات هذه القاعدة أن يكون الإنسان عبدا لله في كل أمر وحين.

§ 2 - العبادة

إن الإمامان في تنوع خطاب الله عز وجل في باب العبادة يبرز أموراً من أهمها:
أ - أن الغاية من خلق الثقلين الجن والإنس هي عبادة الله تعالى لا غير، والمعنى المقصود هنا هو العبادة التكليفية والإرادية لا العبادة القهرية التي هي قاعدة عامة تشمل

⁷ - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْهَضْمَةِ (4) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْهَضْمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9) " (سورة الهمزة)

كل مخلوقات الله الذي يخبرنا عنها بقوله: "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ" (الإسراء:44).

ب - إن التناسق والتناغم بين العبادتين يقتضي من العبادة التكليفية ألا تقتصر ولا تنقطع ولا تتحرف لأن ذلك كله قائم في العبادة القهرية بالأصالة والخلقة، ولا أدل على ذلك من طلب الباري جل وعلا من المكلفين بدوامها دوام الحياة الدنيا أمرا بقوله: "وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ" (الحجر:99) وواصفا المؤمنين حقا باسم الفاعل المفيد للاستمرار في قوله "الْعَابِدُونَ" (التوبة:112) ومعليا من مقامهم بإضافة وصفهم إلى اسمه فقال "إِنَّ عِبَادِي" (الحجر:42)

ج - وهذا الاستمرار لا يستقيم إذا اعتقد المكلف أنه يحق له التحلل من العبادة عند الكسب والصفق والإنفاق... وكل ما يرتبط بمتاع الدنيا موهما نفسه أن الشعائر التعبدية وحدها المعنية بطاعة الله فيها، ولسان حاله هو قول قوم شعيب لنبیهم: "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ" (هود:87)، وانظروا كم هو فاسد هذا الاعتقاد عند قراءة الآية "إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ" (العنكبوت:45)، والنهي هنا لا وجه له إلا أن يكون ساري المفعول طوال المدة التي تفصل بين الصلاة المنتهى من أدائها والصلاة المنتظر أدائها وهي مدة الصفق والتجارة وما شابه...

وتلك المدة هي عينها التي تتجلى فيها ثمرة الصلاة عند تحققها، وهذا التجلي من أمارات قبولها، والمعنى نفسه يتكرر عند التزامن بين أداء الشعيرة والخوض في شؤون الحياة عامة بما في ذلك شؤون المال والأعمال في قول النبي (ص): "إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَصْحَبْ، فَإِنْ شَاتَمَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ" (متفق عليه)⁸ وغير ذلك من الحالات المؤكدة لنفس المعنى مع كل الشعائر التعبدية.

8 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَصْحَبْ، فَإِنْ شَاتَمَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمُسْلِكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرَحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرَحَ بِصَوْمِهِ مُتَّقٍ عَلَيْهِ. موقع: <https://binbaz.org.sa/audios/2933/26-> وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ" رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا مُسْلِمًا وَالتَّسَانِي. نفس الموقع

د- إن الأثر الذي يؤكد على أن انتظار العبادة الآتية بعد العبادة السابقة عبادة محمول عند الكثير على معنى الاستكانة وعدم القيام بأي عمل إلى أن يحين الموعد المرتقب، وهل المنتظر المزاوِل لمهنته ونشاطه لا يشملُه هذا المعنى؟ كيف لا والخطاب الإلهي قائم ليؤكد أيما تأكيد على الأمر بالانتشار في الأرض لابتغاء من فضل الله في قوله: "فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (سورة الجمعة: 10) وفي قوله: "وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (المزمل: 20).

وبعد أليس الذي أمر الناس بإتيان الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصيام وحج على حقيقتها هو الذي أمرهم بالابتغاء من فضل الله أمرا مقترنا بذكر الله وبالجهاد في سبيل الله وهو ذروة سنام الإسلام؟⁹ أليس في هذا إرشاد المكلف إلى الاعتقاد على أن إتيان النشاط الاقتصادي على النحو الذي أمر الله به أن يؤتى من صميم العمل التعبدية المستلزم للجزاء ثوابا إن كان طاعة وعقابا إن كان معصية؟

الاستنتاج

اقتضت حكمة الله أن يتعبد كافة مخلوقاته اضطرارا، وأرشد المكلفين من خلقه إلى أن تكون عبادتهم إياه اختيارا أيضا، وبما أن توازن الخلائق مرهون بدوام ذلك التعبد الاضطراري فإن توازن البشر، على مستوى الأفراد والجماعات، يستمد قوامه من التساوق المستمر بين تعبده الاضطراري وتعبد الاختياري، وإذا تقررَت هذه الحقيقة فلا معنى للاعتقاد في أن الشعائر هي فقط سبيل عبادة الله وحدها بل عبادته مقصودة في الحياة الدنيا كلها بما في ذلك الحياة الاقتصادية، وديمومة الإنسان على أن يكون عبدا لله تستتبع ديمومته على حمل الأمانة.

§ 3. الأمانة

إن عقيدة التوحيد وعقيدة التعبد الإرادي لله ليستا ببعيدتين عن عقيدة تحمل

⁹ - الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، كما جاء في حديث أبي هريرة: "الجهاد سنام العمل" [1]، وفي حديث معاذ: "ألا أنبئكم برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله" موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين:

<https://www.iumsonline.org/ar/ContentDetails.aspx?ID=9016>

الأمانة، إذ الأمانة تتصدر كل تكليف لنا، وهو ما بينه الله من انفراد الإنسان بتحملها مصداقا لقوله تعالى: " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " (الأحزاب:72) بل إن عنق بني آدم مطوقة بتحمل هذه الأمانة بموثق بينهم وبين خالقهم أبا عن جد إلى يوم القيامة وذلك مصداقا لقوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ " (الأعراف:172).

وإذا كان العهد قد انعقد والعقد قد توثق بين الأحد المعبود وخالقه فإن كل عبد منوط به الاستمرار على الوفاء بالعهد وبالعامل ببند العقد إلى أن يلقى ربه، ومع ذلك فإن خالقه لم يتركه هملا، لأنه لو فعل به ذلك لاعتراه النسيان ولتعلل بالنكث على موثقها بطول الأمد عليه دونما تذكير، ولكيلا يكون الأمر كذلك رتب رب الخلائق عقيدة الابتلاء.

§ 4. الابتلاء

لقد اقتضت حكمة الله أن يجعل الابتلاء نصب عيني الإنسان في كل ما يأتي وما لا يأتي من أمور، وجعل لهذه العقيدة لازمتين ما أن يقدم على فعل شيء أو تركه إلا ولهما فيه شأن:

. اللازمة الأولى هي ثنائية الموت والحياة المرشدة إلى فض النزاع بين الهداية والغواية لصالح أحسن الأعمال، وهذا هو الذي يقرره الله عز وجل بقوله: " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا " (الملك:1،2)

. واللازمة الثانية هي ثنائية الشكر والصبر المتعلقة بابتلاء النعمة في الحالة الأولى وبابتلاء النعمة في الحالة الثانية، وكلاهما قيمتان إيجابيتان مطلوبتان في قصد المبتلى، وعكسهما هو الكفر بنعمة الله أو بقضائه وهو قيمة سالبة مطلوب تفاديها في قصد المبتلى، وتأييد هذا المعنى من كتاب الله منطوق الآية: " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (إبراهيم:7).

والى هذا الاعتقاد ذهب نبي الله سليمان لما دانت له الدنيا بحذاويرها وأخذت رغباته تتحقق قبل أن يرتد إليه طرفه، سارع إلى إقفال أبواب الغرور والهوى وبادر إلى الفرار على التو إلى حقيقة المنعم الدائم ولم يشتغل بل لم يلتفت إلى قدر النعمة إلا بمقدار ما تحمل إليه من معاني الاختبار والاستدراج، فسارع إلى إنزالها بالمنزلة التي تستحقها لا أقل ولا أكثر وقرأ فيها الرسالة التي مفادها: " هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ " (النمل:40).

ومن المؤكد هنا أن الابتلاء من هذه الزاوية مؤداه احتمال الافتتان بالمال والجاه والسلطان أو بأي مدخل من مداخل المنشط والنعماء فيكون المبتلى إما شاكرا لأنعم الله وإما كافرا بها.

وعلى عكس هذا يجيء الابتلاء في الزاوية المقابلة من احتمال الافتتان بعدم الصبر وسوء الظن بقدر الله، وذلك ما حذر منه قوله تعالى: "وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبْ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ " (الحج:11).

وأما من يواجه الفتن بالصبر فإن آيات الذكر الحكيم تزف إليه البشرى كما في قوله تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " (البقرة:155،156).

وجماع الأمر أن الإنسان مبتلى مبتلى سواء كان مدخل ذلك ما ظاهره تمكنه من أسباب السعادة الآنية أو ما كان مدخله ما ظاهره تسلط أسباب الشقاوة الآنية عليه، وحقيقة الأمر هي مكمّن الافتراق السلوكي بين مسارين: مسار الهداية ومسار الضلال مصداقا لقوله تعالى: " إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ " (الأعراف:155)، والفتنة تكون بالخير كما تكون بالشر بصريح الآية: " وَنَبْلُوَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً " (الأنبياء:35).

ومن فتنة الخير حيازة المال ومن فتنة الشر الإصابة بالفقر وإن كان خطر الفتنة الأولى أشد من خطر الفتنة الثانية طبقا لقول الرسول الأكرم، صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الصحيحين: وَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ،

كَمَا بَسِطْتَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَّا فُسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ.¹⁰

الاستنتاج:

إن عقيد الانشغال بتحمل الأمانة الأصل تقضي إلى اتباع أوامر الله فيما أمر وفيما نهى وهو عربون على تصديق ذرية آدم للشهادة على أنفسهم بأن الله هو ربهم، وهو الأحق بطاعته لا غير، ولكي يكون الأمر كذلك على الدوام أوقع الله عز وجل حياة الإنسان تحت لازمتين:

. لازمة الابتلاء بالموت والحياة طلبا منه على أن ينجح في الدارين معا: دار الحياة الفانية ودار الحياة الأبدية، وما من سبيل إلى ذلك في كل وقت وحين سوى الامتثال للأوامر في كل ما أمر به علام الغيوب وما تخفي الصدور واجتناب النواهي في كل ما نهى عنه.

. لازمة الابتلاء بالخير والشر باعتبار ما يتطلبه الأول من فروض الشكر والابتعاد عن الكفر وباعتبار ما يتطلبه الثاني من زاد الصبر والابتعاد عن اتهام قدر الله بالتحيز أو الظلم.

وبالمختصر المفيد يتعين على الإنسان أن يجعل نصب عينيه في كل الحالات أن طوق الفلاح هو الطاعة لله وحده، فإن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر، وهذا هو سبيل السلوك السوي المفترض اتباعه في شؤون الحياة كلها ماديها ومعنويها، جسديها وروحيها، وكيف لا ورب العزة سخر كل الكائنات كي تكون في خدمته من حيث لا يدري.

§ 5. التسخير

إن الذي يؤمن بأن الكون بدءا من اللامتناهي في الصغر إلى اللامتناهي في الكبر إنما هو من تقدير الله عز وجل عليه أن يعتقد أيضا أن العلاقة التي يجب أن تربطه به هي علاقة من نفس التقدير الإلهي، عليه أن ينظر إليها ابتداء على أنها من آيات الله الدالة على عظمته وقدرته وأن يستشعر بعد ذلك فضل الله عليه وتكريمه له بأن

¹⁰ - موقع إسلام ويب: <https://www.islamweb.net/ar/fatwa/477328> / وفي حديث طويل روته أم المؤمنين عائشة عنها رضي الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغَنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ" متفق عليه واللفظ للبخاري، إسلام ويب: <https://www.islamweb.net/ar/fatwa/477328>

سخر له مخلوقات شتى منة وعطاء بلا مقابل ولا سابق استجداء، وها هو الحق سبحانه يذكرنا بتلك النعماء في قوله: " اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَأَتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا" (إبراهيم: 32 ، 34)¹¹.

والذي يترتب على الإنسان تجاه هذا العطاء من الله وتذليل مخلوقاته له وجعلها طوع أمره هو أن لا يجدها، وأن يكون استقبالها بشكر المنعم شكرا قوامه التصرف معها أو فيها على الدوام وفق الغاية التي وجدت لأجلها، أي وفق إرادة المنعم، وهو ما يرشدنا إليه الحق سبحانه وتعالى في أكثر موطن من كتابه مثل قوله: " وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (النحل: 14) وليس عبثا أن تتكرر عبارة "لعلكم تشكرون" في الآيات التي يمتن فيها الله على عباده عقب ذكرها كما في الآيات المذكورة في الهامش أدناه¹².

ومن لوازم شكرها النظر إليها على أنها مكنن تجلي عظمة خالقها الذي فطرها لتكون خادمة لمآرب البشرية وعضدا لمقومات حياتها، وعلى أنها مكنونات مشتركة بين الخلائق كلها بما فيه الإنسان في جبلية فطرتها النزاعة إلى التسبيح بحمد بارئها، هذا ما نبأنا الله عز وجل إليه في محكم كتابه قائلا: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ

11 - ومشمولات التسخير تمتد أيضا إلى أصناف من المخلوقات الأخرى ومها صنف الأنعام مصداقا لقوله عز وجل: "وَالَّذِينَ جَعَلْنَاها لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطِيعُوا الْقَائِمَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُها وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى ما هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ" (الحج: 36، 37)

12 - "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (78) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ ما يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِها وَأَوْبَارِها وَأَشْعَارِها أَثاثًا وَمَتَاعًا إِلَى جَبِينِ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83) (النحل: 78 - 83)

- "وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (القصص: 73)

- "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (الروم: 46)

- "وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ جَلِيَّةً ثَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (فاطر: 12)

- "اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" (الجنابية: 12)

وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ" (النور: 41).

وواضح أن المشترك هو أصل التسبيح أما كفيته فلا علم بها عند البشر مصداقا للآية: "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" (النور: 44).

ومن ثم وجب الابتعاد عن عدائها، ومنع الاستقواء عليها، وممارسة الغطرسة في حقها، وها هو الحق سبحانه وتعالى ينذر من يتجرأ على فعل ذلك بالخسران في قوله: "الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (البقرة: 27) ويزيد على إنذاره إياه باللعنة وسوء العاقبة في قوله: "وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ" (الرعد: 25).

وإنه لإنذار ووعد بمثابة الحصن الحصين الذي يعصم السلوك البشري من الوقوع في كل ما من شأنه أن يلحق الدمار بالتوازن البيئي على النحو الذي هو واقع اليوم من جراء الاعتقاد الفاسد في أن الطبيعة عدوة للإنسان وأن سعادة الإنسان تأتي من الانتصار عليها وقهرها وجعلها طوع إرادته من غير ضابط ولا رادع وأن كل ما ليس سببا في تكلفة مالية لازمة التدوين في حساب الربح والخسارة لا يستحق مراعاة توازنه أو مراعاة وجوده، والنتيجة هي أن دب الفساد في البر والبحر والجو، ولم ينج منه لا الجراد ولا النبات ولا الماء ولا الهواء ولا الحيوان ولا الإنسان، وقد يكون هذا بعض من الفساد الذي أشارت إليه الملائكة في قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (البقرة: 30).

ولقد صدق ظن الملائكة على بني البشر الذين تنكبوا عن الصراط المستقيم واحتكموا إلى غير هدى الله أي تحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، وأعرضوا عن ذكر الله، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، ونقضوا الميثاق، ونكثوا العهد...

ولقد حذرنا الحق سبحانه من الوقوع في هذه المعاصي الخطيرة بنهينا عن الفساد مرات ومرات كما قوله تعالى: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا

إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ" (الأعراف:56)¹³.

وهكذا يكون الاعتقاد في النهي عن الفساد أمراً عاماً يشمل الحفاظ على التوازن البيئي كما يشمل الحفاظ على حقوق الغير بين أجيال الزمن الواحد وأجيال الأزمنة المتعاقبة، والسلوك الذي يثمره هذا الاعتقاد لا شك أنه يقي الإنسانية شر الطغيان طالما أنه يصدر عن إرادة تأتمر بأمر ربها، وطالما أن صياغته تتم على مقتضى الميزان الذي وجه إليه الحق سبحانه عباده بقوله: "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ" (الرحمان:7-9).

الاستنتاج:

لا يكفي أن يكون اعتقادنا في وحدانية الله عز وجل وفي أحقيته بالعبادة الإرادية وفي تعاقد الإنسان معه على تحمل الأمانة وفي تذكيره بالابتلاء بالموت والحياة ثم بالنعم والنعم، بل من الواجب أن تلتحق بهذه السلسلة حلقة الاعتقاد في أن الرابط بين الإنسان وما يحيط به من كائنات وملكوت إنما هو رابط كتاب الله المشهود.

ومن ثم فهو رابط سخره الله هبة ومنه لذرية آدم على ألا يكون التصرف فيها متجاوزاً الحكمة التي من أجلها وجدت، وألا تكون الاستفادة منها إلا بالميزان والقسط باعتبارهما صمام أمان ضد الفساد والإفساد في الأرض.

والسلوك الذي يثمره مثل هذا الاعتقاد لا يمكن أن يكون إلا محافظاً على التوازن البيئي ومحافظاً على التوازن الاجتماعي بين الأجيال المتعاشية والأجيال المتعاقبة، وهو نفس السلوك المتعين اتباعه عند التصرف فيما استخلف الله فيه عباده من الممتلكات.

§ 6. الاستخلاف

إذا كانت عقيدة التسخير تنصرف إلى ترتيب علاقة الإنسان بمخلوقات تنتظم فيما أصبح يصطلح عليه حالياً بالبيئة الطبيعية فإن عقيدة الاستخلاف تخص من بين تلك المخلوقات ما يمكن أن يدخل في دائرة المال والتملك وهي عقيدة تؤصل للموقع الذي

¹³ - ولقد تكرر هذا النهي في آيات أخرى كما في قوله تعالى: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ" (الأعراف:85) وفي قوله: "وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (القصص:77). وفي قوله: "وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" (المائدة:64)، وفي قوله: "وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" (البقرة:60)، (الأعراف:74)، (هود:85)، (الشعراء:183)، (العنكبوت:36)، وفي قوله: "أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ" (ص:28).

يجب أن ينزل فيه المال من حياة الناس، بل هي عقيدة مشتقة من عقيدة أشمل منها وهي عقيدة الإنسان الخليفة لله على الأرض بنص آيات محكمات منها: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة:30).¹⁴

وهذا التخصيص بالخلافة يعقبه تخصيص بالإنعام كما يذكرنا به قوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ، وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" (الأنعام:141،142).¹⁵

والربط بين التخصيص بالخلافة والتخصيص بالإنعام يتجلى في أن المالك الأصلي للنعم هو الله المنعم وليس الإنسان المنعم عليه بدليل أن الله أضاف المال إليه أصالة وأضافه إلى الإنسان نيابة واستخلاقاً مصداقاً لقوله عز وجل: "وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ" (النور:33)، وقوله: "وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ" (الحديد:7)، لذلك يصير تنسيب المال إلى الله محمول على الحقيقة الكاملة بينما تنسيبه إلى الإنسان محمول على الحقيقة النيابة، وهو ما يستوجب تبعية إرادة المالك النائب لإرادة المالك الأصل.

وأهلية الإنسان بهذه الخلافة في الأساس هي أهلية مطلقة طالما أنها ممنوحة لجنس الإنسان لا لصنف من أصنافه، وهذا المعنى هو الذي تؤكد الآية "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة:30)، لكن في الفعل لا يمكن أن تكون تلك الأهلية إلا عقدية مختارة شأنها شأن التعبد الإرادي في مقابل التعبد الاضطراري.

¹⁴ - والوجه الآخر للاستخلاف كما في قوله تعالى: " وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ " (الأنعام:165)، وقوله: "هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا" (فاطر:39).

¹⁵ - والتذكير بهذه النعم تكررت في آيات أخرى منها قوله تعالى: " وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْبِحُونَ وَحِينَ تُسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْعِيبَةِ إِلَّا لِنَفْسِكُمْ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " (5 النمل:5 - 8)، وقوله: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ" (النمل:72)، وقوله " وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ " (الزخرف:12)، وقوله: " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِائَةٍ أُمِّيَّةٍ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ " (يس:71 - 73)، وقوله: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ " (فاطر:27).

لذلك تنتظم علاقة الإنسان بالمال في هذه الحالة بضابطي الإيمان: أولهما أن إيمان الإنسان بأنه خليفة لله على الأرض كفيل بحمله على عرض كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو حديث نفس على شرع الله باعتباره البرنامج التفصيلي لإرادة مستخلفه، وثانيهما: أن إيمانه بأصالة ملكية الله لما يملك كفيل بأن يحمله على إخضاع أي تصرف فيه لذلك البرنامج.

وبيان ذلك من جهة الخلافة أن الإنسان مطلوب عقيدة وعملا أن يخضع فيما يتخذه من قرارات ويقوم به من أعمال في باب الإنتاج أو الاستثمار أو الاستهلاك أو البيع أو الشراء أو أي باب من أبواب الحياة الأخرى لبنود شرع الله الواردة في كتاب الله وسنة رسوله باعتبارها التعبير الصحيح والصريح على مراد الله من خليفته.

وهذا هو المستوى الذي تتحقق فيه الخلافة الخاصة حيث هي ممكنة التطبيق على مستوى الآحاد كيف ما كانت المجتمعات التي يعيشون فيها بعدا أو قربا من تطبيق شرع الله في الحياة العامة، وهذه الخلافة مهما بلغ أصحابها من درجات الاجتهاد فيها تبقى ناقصة إن لم تكن في محيط مساعد عليها وبيئة تذكر بها وجو يقود التائه إليها ويبين للجاحد ما عليه تجاهها ويأخذ على يد من يعرقل سيرها أو يخالف حدودها.

وذلك المحيط وتلك السنة لا يقومان إلا بقيام الخلافة العامة حيث تطبيق شرع الله باعتباره هو الذي يمثل إرادة المجتمع في مؤسسات المجتمع السياسية والتشريعية والقضائية وفي المال والأعمال وفي مختلف مرافق الحياة الخاصة والعامة.

من هنا يتبين أنه في ظل عقيدة الاستخلاف لا يكون لشكل التملك نفس السطوة التي يتمتع بها فيما سواها، لأن الضابط الناظم للتصرف في المال هو نفسه سواء كان ذلك الشكل من صنف الملكية الخاصة أو من صنف الملكية العامة، إنه شرع الله الذي هو التعبير الحق على مراد المستخلف (بكسر اللام) نوابا على ما يملك ملكية أصيلة، وعليه فإن يد الإنسان على المال يد إنابة وليس يد أصالة وتصديق ذلك هو منطوق الآيات التي ذكرنا بعضها آنفا.

ومن يده على المال يد إنابة أو وكالة ليس له أن يفعل في هذا المال ما يشاء بل عليه أن يراقب القواعد والحدود التي رسمها له المالك الأصيل أمرا ونهيا وعفوا، والمعول

على هذا الاعتقاد أن ينتج سلوكا نحو المال يجعل من تملكه تملكا عاما أو خاصا غير ذي خطر على ترجيح تعميم الاستفادة منه على الجميع وفق الضوابط المرعية والحدود التشريعية الموصدة لأبواب الظلم والتظالم والفتاحة لأبواب العدل والتكافل.

وعندما تقوم في مجتمع ما معادلة السلوك الفردي والجماعي على مقتضيات الخلافة الخاصة والخلافة العامة وتقوم معادلة التصرف في المال على مقتضيات الاستخلاف فانظر أن يسود فيه الرخاء، ليس هذا فقط، وإنما انتظر أيضا أن تعم الرفاهية الحققة في ربوعه لكون نعمها لا تتقضي بانقضاء الحياة الفانية وإنما تمتد إلى الحياة الأبدية مصداقا لقوله تعالى: " فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " (آل عمران: 148).¹⁶

§ 7. الجزاء

إن مدار العقائد الضابطة للسلوك الاقتصادي على النحو الذي رأينا هو الاختيار، والاختيار يقتضي المسؤولية، والمسؤولية تقتضي الجزاء.

ولا تصح أي عقيدة من العقائد السالفة الذكر ما لم تسندها عقيدة أنها وما تقتضي إليه من تصرف وسلوك موجب إما للحسنات وإما للسيئات، ولإنسان أن يؤمن بها أو لا يؤمن بها إلا أنه واقع تحت طائلتها لا محالة، لأنها عملية إحصائية دائمة لا يفتر ولا يكل القيمون عليها أبدا، وبيان ذلك قوله تعالى: " وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ " (الانفطار: 10 - 12).¹⁷

ومن آثار هذه العقيدة على السلوك الاقتصادي ألا يفصل بين ميزان الربح والخسارة باعتباره المؤشر الدال على حسن أو سوء الاختيار في مجال الكسب المادي وبين ميزان الحسنات والسيئات باعتباره المؤشر الدال على حسن أو سوء الاختيار في مجال الكسب الروحي ودمج الميزانين معا في كل قرار وكل عمل وفق مبدأ " وَابْتَغِ فِيمَا

16 - والوعد بالفلاح دنيا وأخرى يتكرر في قوله تعالى: " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإَلْذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (الأعراف: 157)، وقوله: " مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا " (النساء: 134).

17 - ونفس المعنى تؤكد الآية: " مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ " (ق: 18)، والآية: " وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا " (الكهف: 49)،

آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ" (القصص: 77) نحصل على الميزان الإلهي للسلوك السوي، السلوك الضامن:

أولاً: للفلاح الدنيوي لأنه يصدر على عقيدة إقبال باب الحرام من حيث المبدأ وفتح أبواب الحلال من حيث المبدأ، مما يستتبع اقتلاع الظلم من جذوره، وترسيخ العدل في كلياته وتفصيله، وبذلك تتحقق رفاهية الفرد والمجتمع مصداقاً لقوله تعالى: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ " (الأعراف: 96).

وثانياً: للفلاح الآخروي لأن قياس المغنم والمغارم فيه أوسع من أن يسمح بخدش مقتضيات عقائد التوحيد والتعبد الإرادي لله وتحمل الأمانة والابتلاء بالخير والشر والتسخير والاستخلاف، وأي قياس هذا؟ إنه القياس الذي يحمل صاحبه إلى التسامي بقيم الروح على قيم الجسد بأن يتجاوز الاكتفاء بمراعاة الحقوق والواجبات والفرائض والمحرمات إلى مقارعة مراتب الإحسان طمعاً في المغفرة والرضوان تطلعا إلى نيل وعد الله الموعود به للصادقين من عباده قي محكم تنزيله في الآية: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " (المائدة: 9).¹⁸

إن إدماج الإيمان بالعمل الصالح لهو النهج المثمر للاستخلاف والتمكين والأمن في الأرض ولهو المسلك الجالب للمغفرة والأجر العظيم في الآخرة، وإلى من هذا هو سبيلهم يسوق منطوق العديد من الآيات البيّنات بشارات الجزاء المستحق على أعمالهم ومنها الآية: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا، خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا " (الكهف: 107، 108).¹⁹

¹⁸ - وهو وعد تعبر عنه آيات أخرى كما جاء في قوله تعالى: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا " (النور: 55)، وفي قوله: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " (الفتح: 29).

¹⁹ - ولقد تكررت بشارة "لهم جنات" في 14 آية، وأولها الآية: " وَيَبْتَئِرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤَا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة: 25)، وتكررت عبارة "أولئك أصحاب الجنة" في 14 آية منها التي يقرن فيه نيل هذه المنزلة بالعمل الصالح كما في الآية: " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة: 82)، وتكررت عبارة " يوفيهم أجورهم " مقترنة بالعمل الصالح في 3 آيات منها: " وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " (آل عمران: 57)، وتكررت عبارة " سيدخلهم في رحمة منه " في آيتين إحداها الآية: " فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا " (النساء: 175)، ووردت عبارة "لهم مغفرة" في 10 آيات منها الآية: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " (المائدة: 9)، ووردت عبارة "جنات تجري في 28 آية منها: " وَيَبْتَئِرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤَا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة: 25)، وجاءت تهنئة القائمين بالعمل

وهذا التحفيز على إدماج العمل الصالح بالإيمان عام في كل تصرفات الإنسان ومن البديهي ألا يشذ السلوك الاقتصادي عن هذه القاعدة، بل هو معني بها كما هي معنية بها بقية سلوكيات الإنسان، لأن به فقط يتأتى تحقق التوازنات اللازمة بين ثنائيات الوجود البشري: الجسد والروح، النوازع الفردية والنوازع الاجتماعية، حياة الدنيا وحياة الآخرة، عالم الشهادة وعالم الغيب... الثنائيات التي ما إن يدب الاختلال فيما بينها إلا وفتحت أبواب دفن الاطمئنان وأغلقت أبواب الأمان.

والزيف كل الزيف هو دأب البعض على الترسخ في الأذهان وفي الوجدان للمنهج الرافض للتوفيق بين متناظرات الوجود البشري إن على مستوى الافراد أو على مستوى المجتمعات، ومن ثم يسوقون لمقولات تبتز حقائق الأمور بترا، فتتوزع مزاعمهم حول أي البعدين أولى بالاهتمام في حياة الناس: البعد المادي أم البعد الروحي؟ البعد الفردي أم البعد الاجتماعي؟ البعد الدنيوي أم البعد الأخروي؟ البعد البيئي أم المردودية الاقتصادية؟ ثم يدعي كل فريق أن نهجه هو النهج الموصول بالإنسان إلى ما يصبو إليه من رقي وازدهار، وبه فقط يتم حصوله على الرفاهية التي لا تنسى والسعادة التي لا تبلى...

إن هذا الزعم لتصرخ في وجه أصحابه الحقيقة التي مفادها أن تلك الثنائيات ما وجدت إلا ليكمل بعضها بعضا ويعضد بعضها بعضا في انسجام وتناغم دائمين ما دامت السماوات والأرض، وهي الحقيقة الآخذة من وعائها على هذا النحو وروض النفس على العمل بمقتضاها على هذا التمام إلى نيل السعادتين: سعادة الحياة قبل الممات وسعادة الحياة بعد الممات...

ومن شأن التكامل بين تلك الثنائيات أن يستأصل شأفة الطغيان من النفوس وأن يحول العمل الاقتصادي من غاية في حد ذاتها إلى وسيلة بفضلها يتحقق ما هو أرقى منها ألا وهو تحقيق معاني الاستخلاف لله على الأرض حيث تكون السيادة لمعاني أداء الواجب قبل المطالبة بالحقوق، ولتغليب الإيثار على الأثرة، وللاكتفاء بالحلال بل والزهد في الانتفاع به، ولانتقاء الشبهات، وللابتعاد عن الحرام، وللسعي إلى التعاون، ولإطفاء شر

الصالح بعبارة "طوبى لهم وحسن مآب" في آية واحدة وهي: " الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُ " (الرعد 29)، وغير ذلك من البشارات تنوعا وتكرارا .

الفتن، ولسد ذرائعها... كل ذلك يفرغ النشاط الاقتصادي في قالب السلوك السوي الذي ارتضاه الله لعباده، وهو سلوك يرتقي باهله في مراتب الإحسان الذي هو "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" الإحسان الذي مداره: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

وعلى هذا يكون العمل الاقتصادي المطلوب إسلامياً هو عمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات: العمل الذي ينأى به أصحابه عن طريق الفساد والإفساد المخرب للبيئة والأخلاق، المدمر للذمم والأرزاق، العابث بسنن الفطرة والآفاق، العمل الذي يتخذ الطريق المستقيم طريقه، الطريق المرشد إلى الحرص على تنمية كل نافع ونبذ كل ضار، والهادي إلى الصلاح والإصلاح عند التعامل مع ما هو مسخر للإنسان ومع ما هو مستخلف فيه وعند تطوير أساليب وتقنيات الإنتاج لاستخراج ما ينفع الناس منهما وترتيبهما على الإنصاف عند توزيع ثمارهما.

ومؤدى ذلك كله هو التوفيق بين ما تنصبه التصورات المختلفة مضادات الجمع بينها محل خلاف شديد بين قادة الفكر وساسة الأمم عبر الأزمنة قديماً وحديثاً، مع العلم أنه التوفيق بينها هو الذي يجعل منها متناظرات يخدم بعضها بعضاً حيث يلتئم التوازن الذهبي بين الفعالية الإنتاجية والعدالة التوزيعية، بين الحياة المادية والحياة الروحية، بين الحياة الفردية والحياة الاجتماعية، بين الحفاظ على البيئة وهاجس المردودية.

الخلاصة:

تؤسس النظرة الإسلامية تصورها للوجود على أن مخلوقات الله مسيرة بقدر الله، وأن الإنسان كونه من هذه المخلوقات واقع لامحالة تحت رحمة هذا القانون فيما لا سبيل له إلى الاختيار فيه، ويساويها في خلو ذمتها من المسؤولية في هذا الجانب من أمور وجودها الخلقية، فهو مثلها يخضع قهراً للسنن الكونية التي أودعها الله فيها وفيه.

ويختلف عنها فيما أنيط به من المسؤولية على ما جعل له فيه حظ لمشيئته وإرادته، فهو على خلافها مخاطب بـ "افعل ولا تفعل" وهو وحده من بينها يتمتع بحرية الاختيار بين الاستجابة لداع الخير أم لداع الشر، وحرية الطاعة لهداية الرحمان أم لغواية الشيطان، فمن وطن نفسه على طاعة هداية الرحمان كان سبيله هو سبيل الهدى والرشاد والصلاح، ومن وطن نفسه على غواية الشيطان كان سبيله هو سبيل الضلال والبغي

والفساد، وتلك هي نتيجة خضوع الإنسان عند إقدامه على أي أمر من أموره لقانون: " إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا " (الإنسان:3)، وقانون: " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا " (الشمس:7،10).

والصلاح سبيله التزكية والشكر، والفساد سبيله الدس والكفر، ولا صلاح بدون إفراط الله بالوحدانية والتقرب إليه بالعبادة، والإيمان بما عهد به إليه من تكاليف الأمانة الكبرى واستحضار الابتلاء بالحياة والموت والامتحان بالنعم والنقم، ولا إصلاح بدون عرفان بما وهب الله له من مسخرات وما استخلفه فيه من أموال، وجماع ذلك جزاء من جنس العمل: الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، وخلاصته إما نعيم في الجنان وإما شقاء في نار جهنم والعياذ بالله.

وإلى حسن الخاتمة يرشد الهدى الرباني الهمم ويحفزها نحو السعي إلى الإيمان الصادق والعمل الصالح، وينجي من الخسران المبين من الأفراد والجماعات الذين يتبوؤون منزلة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر،²⁰ ويكافئهم بالفوز العظيم مصداقا لقوله تعالى: " وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (التوبة:72).²¹

²⁰ - وهذا مصداقا لقوله تعالى: " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصُوا بِالصَّبْرِ (3) " (سورة العصر)

²¹ - وهذه آية واحدة من 13 آية يمن فيها رب العزة على عباده الذين أطاعوه بالفوز العظيم، وفي آيات أخرى يتعدد التعبير على حسن خاتمتهم بصيغ من قبيل أنهم من أصحاب الجنة، وأن لهم الجنة، وأن الله سيدخلهم جنات، وأنه يوفيهم أجورهم، وأن لهم المغفرة، وأن لهم قدم صدق عند ربهم، وأنهم يجزون بالقسط، وأنهم يهديهم ربهم، وأنه طوبى لهم وحسن مآب، وأن لهم مغفرة ورزق كريم، وأن لهم جنات الفردوس، وأن لهم جنات النعيم، وأن الله يكفر عنهم سيئاتهم، وأنه يدخلهم في الصالحين، لنبيئتهم من الجنة غرفا، وأنهم في روضة يحبرون، وأن لهم جنات المأوى، وأن لهم مغفرة وأجر كبير، وأن لهم أجر غير ممنون، وأنهم في روضات الجنات، وأن لهم أجر كبير، وأنهم خير البرية.

الفهرس

2.....	توطنة
5.....	1.§ - التوحيد
6.....	2.§ - العبادة
8.....	3.§ - الأمانة
9.....	4.§ - الابتلاء
11.....	5.§ - التسخير
14.....	6.§ - الاستخلاف
17.....	7.§ - الجزاء
22.....	الفهرس